نبيل قديش: العمى يدفعنا هنا إلى نهاية النفق المضيء

«بياض العين» رواية تحاكي واقعا تونسيا ضبابيا

هنـاك ثيمـات أدبيـة وفنيـة يعاد الاشـتغال عليها دائمـا ولكنها لا تنضـب حيـث تنمو مع الإنسـان وبه، فثيمة مثل الحب أو الشـجاعة أو الوطـن وغيرها، كلهـا لا تزال إلـى اليوم محل اشـتغال المبدعين على اختـلاف انتماءاتهم من كتاب وشـعراء ومسـرحيين ورسـامين وغيرهم. من الثيمات الخالدة كذلك نجد ثيمة العمى، وربما يتبادر إلى أذهاننـا مباشـرة روايـة "العمى" للكاتب البرتغالي خوسي ساراماغو أو الدور البديع الذي أداه ألباتشينو كأعمـى في فيلـم "عطر امـرأة"، وكثيرة هي الأعمال التي كان العمى فيها ثيمـة خلاقة أضاء من خلالها المبدعون على أكثر المناطق عتمة في الذوات البشـرية. "العرب" كان لها هـذا الحوار مع الكاتب التونسـي نبيل قديش الذي اختار ثيمة العمى محورا لروايته الأخيرة.

محمد ناصر المولهي
كاتب تونسي

تونـس - بعـد "العبـث مع نيتشـه" و"زهرة عباد الشـمس" و"شارلي" يصدر للكاتب التونسي الشاب نبيل قديش عمل روائي جديد يحمل عنوان "بياض العين". وتصـدر الرواية عن مؤسسـة الانتشـار العربي ببيروت ومن المنتظر أن تطرح في المكتبات ومعارض الكتب العربية قريبا.

الرواية من الحجم المتوسط في مئتين وسـتين صفحة اختار الكاتب أن يبوبها في ثلاثة أقسـام أو أبـواب وفيها يتابع السارد أمجد الطبيب الحالي استعراض فتـرة مفصلية من عمره، كمـا يفرد جلدا فـوق طاولة جراحـة التجميـل، متتبعا بمشـرط الجراح وعين الطبيب النفسـي تشوهات وكدمات الماضي.

أمجد يكتشـف في سـن التاسعة أن أبـاه أعمـى وأن لطخـة بيضـاء كبيرة تفيـض على سـواد كل مـن عينيه، حين سـقطا في حفرة عميقة وقد عول أحدهما على الآخر.

> الرواية تحاكي بشكل غير مقصود الحالة التونسية على جميع الأصعدة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية

عشر سنوات كاملة يقضيها أمجد في حفرة الحيرة والسـؤال حتى نجاحه في الثانوية العامة وذهابه لدراسة الطب من أجـل تحقيق الحلم فـي أن يصبح جراح عيون، وهنا نكتشـف الكثيـر لا عن واقع أمجـد وعلاقتـه بأبيه فحسـب بل أيضا عن واقع حياة اجتماعية كاملة، تشـوبها الضبابية والعمى.

العمى والضوء

العمى ثيمة روائية ثرية اشتغل عليها أكثـر مـن كاتب، يقـول نبيـل قديش في تصريح خاص لـ"العرب" إن "العمى ثيمة قديمة وقع الاشـتغال عليهـا ليس أدبيا فقط من قبل كتاب كخوسـي ساراماغو في رواية العمـى أو في مالك الحزين للكاتب المصري إبراهيم أصلان، بل في السـينما والموسيقى والرسم وغيرها من الفنون. لا ننسـى رائعة الكيت كات وهو فيلم لداود عبدالسـلام اقتباسـا عن مالـك الحزين. طبعـا هـي ثيمـة كلاسـيكية متجـددة ومتقلبة ما دامت مرتبطة بالإنسـان على اعتبـاره كائنا متقلبا. وفي رواية 'بياض العين' ثيمة العمـى تناولتها من الجانب المضيء والحميمي فيهـا. العمى يدفعنا هنا إلى نهاية النفق المضيء".

العمى الحقيقي هو عمى القلب والبصيرة

في سـؤال "العرب" لقديـش إن كان يمكـن اعتبار "بيـاض العين" إسـقاطا لواقع تونسـي يعيش بياضا ضبابيا بلا دليل أو وجهة واضحة؟

يجيب الكاتـب "ربما تكـون تحاكي بشـكل غيـر مقصـود وبـريء الحالـة التونسـية علـى جميـع الأصعـدة، بما فيها السياسـي والاجتماعـي والثقافي والاقتصـادي، ألسـنا نتخبـط ونتقلـب متلمسين دربنا بصعوبة؟ ألم نكن عميانا ديمقراطيـا علـى الأقل طيلـة نصف قرن أو ما يزيـد؟ الآن يبهرنا ضـوء الانتقال الديمقراطي بعدما ظللنا مغمضي الأعين لعقـود. أعتقد أنني كتبت الرواية بخليط مـن الأمل واليـأس والتردد، فيـه ما هو متأت من داخلي وفيه ما جاء من تأثيرات الواقع المحيط بي. لكنني أظن في النهاية سـنبصر الطريق كوطن وكأمة". إذا كان البيـاض عند محمـود درويش مثـلا يعنـي عالـم المـوات، فالبياض بالنسـبة إلى قديش يعنـي خزان حيـاة. إنه، كما يقـول، لا يعني المـوت أبدا. مضيفا "تعـرف حين تقترب جـدا مـن فاقـدي البصـر تكتشف أن حاسـة السمع عندهـم قويـة جـدا مثل حاسـة اللمس أيضا. هم يعوضـون فيكتسـبون مدارك أخرى نفتقدها نحن الأصحاء كما نعتقد. بالنهاية العمى الحقيقي هو عمى القلب والبصيرة".

الاختلاف عن الذات

ينطلق قديش في أعماله الروائية من جانب مهمل وجزئـي مثلما هو الأمر في روايته "شـارلي"، ليقحم من خلالها رؤى أوسـع، أما هذه الروايـة فقد حاول فيها أن يكـون مختلفا عن نفسـه فـي المرات السابقة.

يتابع الكاتب "في 'العبث مع نيتشـه' و'زهرة عباد الشـمس' و'شارلي' شعرت أن نفسـي الروائي قصير ومتلهف نوعا مـا. في بيـاض العين سـردت على مهل. سيلاحظ القارئ الذكي الفروق".

وفي ختـام حديثـه لـ"العرب" يلفـت قديـش إلـى أن لـه رواية ستنشـر قريبا بعنوان "الركـض فـي المنخفـض" وسـتكون بوتيـرة مختلفـة أيضا، كمـا يعد قراءه. مضيفا "أكـره أن أكـرر نفسـي في كل مرة. وأحاول أن أجعل السـارد يتخلى عـن جبة نبيل قديش في كل مـرة ليلبس جبتـه الخاصة به".

يذكـر أن نبيـل قديـش قاص وروائي وإعلامي ثقافي تونسـي، نشرت مقالاته في عدة صحف ونشـريات عربية. حازت مجموعتـه القصصية "العبث مع نيتشه" 2014 على جائزة الكتام آر للقصة، فيما نالت روايته "زهرة عباد الشـمس" جائزة الكومار الذهبي فرع المؤلف الشاب لأحسـن الروايات التونسـية سنة 2015 كما وصلت روايته "شـارلي" إلى القائمة القصيرة لجائزة معـرض تونس الدولي للكتاب خلال دورة 2016.

وتحصل قديش على منحة الصندوق العربـي للثقافة والفنـون لكتابة الرواية وشارك في ورشـة البوكر للكتّاب الشبان العرب في عمان 2017.

كتّاب لا يملكون أسماءهم

شرف الدين ماجدولين
كاتب مغربي

أتعس قدر يصيب كاتبا أن يمتلك اسما شائعا، يقتسمه معه العشرات من الناس، بعضهم كتّاب أو فنانون معروفون، فيحتاج دوما إلى بيان هويته، والتعريف بنفسه بمنأى عنهم، عبر صفات مضحكة أحيانا، كأن ينسب نفسه إلى مدينة، أو إلى فن، أو أن يضيف اسما ثالثا، أو أن يستعير اسما جديدا، أو ينشر أعماله دوما مشفوعة بصورة ونبذة تعريفية، وفي النهاية يبدو الأمر عبثيا، ومكلفا، أهون منه اختراع اسم جديد قابل للتداول وحفظ المكانة.

آكتب هذه الكلمات وفي ذهني أسماء: محمد بن تاويت، ومحمد مفتاح ومحمد برادة ومحمد السرغيني، ومحمد العمري ومحمد معتصم وعبدالسلام المساوي... والعشرات من الطرائف المرتبطة بتشابه الأسماء المذكورة مع نظائر لها في عالم الكتابة والإبداع، أقل حظا من الشهرة والحضور الإعلامي، أو أضأل قسطا من الموهبة والمعرفة والإنتاج؛ وليس بعيدا عن سياق الالتباسات الاسمية هذه ما كتبه الروائي اللبناني إلياس خوري قبل سنوات في عموده الأسبوعي بالقدس العربي مستنكرا على حركة حماس إقدامها على اعتقال الشاعر الفلسطيني الكبير: أحمد دحبور، ليعود في عمود لاحق، بعد أن تبين أن الأمر يتعلق بمواطن مغمور، ليعتذر عن الخطأ، ويشفع اعتذاره بسرد واقعة لا تخلو من عمق مأساوي؛ حيث تعوّد الباحثون في الرواية العربية إدراج أعمال كاتب سوري سيء الحظ ضمن خانة إنتاجه، لأنه يحمل الاسم الشهير ذاته (إلياس خوري)، وهو ما يثير في نفس الكاتب اللبناني أحاسيس ملتبسة، هي مزيج من الانزعاج والحرج والشعور بالذنب.

أخذتني هذه الوقائع التي لا تخلو من طرافة إلى تقليد قديم، كان فيه المؤلف العربي لا يحفل كثيرا بوقع الاسم الأصلي، ساعيا جهد إمكانه إلى استبعاده من دائرة الانتشار واللمعان، وتبخيسه لحساب الكنى والألقاب، ذات المنحى الوصفي الذامّ أو المادح؛ فلا يكاد يغفل مؤرخ للأدب، أو كاتب تراجم، من القدماء، عن ذكر لقب أديب، وتعليل ذلك الوصف الذي بات بديلا لاسم الأديب الأصلي وعلامة على شهرته؛ بل إنك لا تكاد تعثر على ديوان أو رسالة أو مصنف في أحد ألوان القول التراثي إلا وتجده ممهورا بلقب المؤلف أو كنيته. كم من القراء اليوم يعرف الأسماء الأصلية للجاحظ، وأبي نواس، والأعشى، والخنساء، والنابغة الذبياني، والأخطل، والحطيئة، وأبي العتاهية..؟

والحق أن هذا الولع الغريب بحجب الاسم الأصلي، ينطوي على نزوع فطري للتميز والوحدانية، وضيق بالمنازعة والاشتراك، وسعي إلى تحصين الشهرة والمجد، وهي سمة تلتقي بظاهرة مفارقة عرفها الأدب القديم أيضا، وهي زهد المؤلف في اسمه لحساب المرويات، إذ في الكثير من الأحيان يبدو الشاغل الرئيسي للكاتب الكلاسيكي هو مصير القصيدة أو الخبر أو الرسالة، نذكر جيدا في هذا السياق مؤلفين عديدين ألفوا كتبا ونسبوها إلى شخصيات وهمية، كـ: أبي عبدالله الجهشياري. كما أن بمقدور أي مطلع على التراث العربي أن يحصي العشرات من القصائد التي نحلت ونسبت إلى شعراء آخرين لتخليد ذكر قبيلة أو إمارة أو مدينة أو نسب، ويمكن العودة إلى كتاب كـ"جمهرة أشعار العرب" أو "الأصمعيات" أو "ألف ليلة وليلة" للوقوف على عشرات النصوص الشعرية المنسوبة إلى موسى أو آدم أو إلى الشيطان نفسه!!

قبل سنوات عندما اطلعت على رواية "هذيان: أيام فيرناندو بيسوا الثلاثة الأخيرة"، للروائي الإيطالي أنطونيو طابوكي، اعتقدت للوهلة الأولى أن: ألفارو دي كامبوس وألبيرتو كايرو وريكاردو رييس، شعراء حقيقيون، عاصرو بيسوا، وربطته بهم وشائج الصداقة، ولعنة الكتابة، فلهم جميعا سير مأثورة، وتواريخ ميلاد محددة، وأساتذة معروفون، وانتسبوا كلهم إلى تيارات أدبية، وروجوا لجماليات شعرية متباينة، وقامت بينهم معارك وسجالات... ثم حين اكتشفت أنهم أسماء فقط، وأقنعة لكاتب فرد، هو بيسوا نفسه، تبلورت في ذهني، بوضوح أكبر، الدينامية الذاتية للاسم، التي تقابل في العمق وهم الاسمية، وبت موقنا أن الكتابة لا تحيل في العمق على ذوات مرجعية، بقدر ما تنتسب إلى صور اسمية، صور لا ماهية لها إلا أسلوبها، ولا امتداد لها إلا في الكون النصي، صور تزدهي بالألوان في مجال دنيوي مكتسح بالبياض.

> هناك سلوك أدبي شاع بشكل لافت ينحو إلى اختيار اسم قناع، ونحته بذوق ومحبة، وجعله تميمة للجسد الورقي

من هنا أجدني متعاطفا أشد التعاطف مع ذلك السلوك الأدبي الذي ينحو إلى اختيار اسم قناع، ونحته بذوق ومحبة، وجعله تميمة للجسد الورقي، ما دام الأول قد اصطفي -من قبل الغير- للتعريف والوسم ودرء الالتباس. هكذا أتمثل الاسم المستعار بوصفه مجاوزة لمبدأ الضرورة، وتمجيدا للحرية، التي هي شرط الكتابة وسداها ومرامها، لذا حين أعيد التأمل في أسماء: أدونيس، ومهدي عامل، ويمنى العيد، وسميرة بنت الجزيرة العربية، وفدوى مالطي دوغلاس، وإدريس الخوري، ورفيقة الطبيعة... وغيرها، أتأكد مجددا أنها استعيرت لتمجيد وعي الذات العميقة، للدلالة على مفردات ومجازات وتعبيرات خاصة، وإضمار رسالة ملغزة لا تلبث أن تتعرى كثافتها في المتون المكتوبة. كما أعتقد أن هذه الأسماء المستعارة لا يمكن أن تنتمي إلى المجال الدنيوي وإنما إلى الأفق المعنوي للكتابة، وأنها وضعت للتفكير في ذات الكاتب من حيث هي وجود افتراضي مستقل، وإمكانية فعل منزاح عن التباسات المجال الاجتماعي.

في روايته الأسرة "علي باي العباسي" كتب الروائي الإسباني رامون مايارتا في الأسطر الأخيرة من خاتمة النص "الاسم جدار يرتفع حول الكائن البشري، مكان عصي بعيد عن الطرق التي تمضي فيها الحياة. ومن يحمله يبقى دائما في المكان ذاته، حتى ولو ابتعدت أقدامه وتلف حذاؤه. لكنني أنبهكم، على الأخص، إلى أنه ما من اسم، أي اسم كان، بمنجاة من اللصوص من أي شخص جريء، عازم على السيطرة عليه والتمتع به والمعاناة معه، وتحمله كما يتحمل القدر".

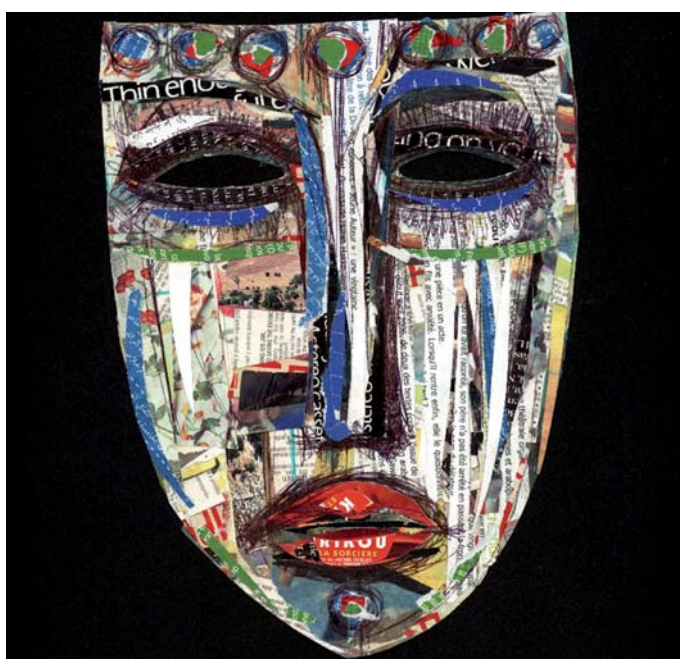

الأسماء المستعارة أقنعة كتابية

المغرب يودّع الممثلة المخضرمة أمينة رشيد

الـدار البيضـاء (المغـرب) - شـيعت مدينـة الـدار البيضـاء فـي المغـرب الثلاثاء، الممثلة المغربية أمينة رشـيد التي توفيت بالمستشفى مساء الاثنين عن عمر ناهز 83 عاما.

وقالـت وزارة الثقافـة والاتصـال المغربيـة فـي بيـان لهـا إن الراحلة "قدمـت خلال مسـارها الفني مـا يزيد عـن 60 عمـلا مسـرحيا وشـاركت في العديـد مـن الأعمـال التلفزيونية منذ 1962".

وأضاف البيان "مارسـت العمل في الإذاعة المغربية لسنوات طويلة وقدمت حوالي 3500 تمثيلية ومسلسـل إذاعي كما شاركت في عدة أفلام".

ورثاهـا عـدد كبيـر مـن زملائهـا ومعجبيها بعبارات مؤثرة عبر وسـائل التواصل الاجتماعي.

وكتـب الممثـل المغربـي عبدالله شيشـة على حسـابه بموقع فيسـبوك "أيقونة الفن المسـرحي والسـينمائي والتلفـزي والإذاعـي المغربـي ترحل إلـى دار البقـاء، اللهم ارحمهـا واغفر لها وأكرم نزلهـا هي وزوجها المرحوم عبدالله شقرون".

وكانـت أمينـة رشـيد متزوجة من الكاتب والإعلامي عبدالله شقرون الذي توفي عام 2017 عن 91 عاما.

وكتبـت الممثلـة ومقدمـة البرامج المغربيـة سـامية أقريو عـن آخر لقاء جمعها بالفنانـة الراحلة "رغم المرض كنـت صامـدة وصابـرة... فلترتاحـي عزيزتي أمنـا الغالية للا أمينة رشـيد الغزالـة صاحبة القلب الطيب والكريمة والرائعة". كمـا رثاها الممثل المصري مصطفى شعبان على حسابه في تويتر قائلا "بكل الحزن أنعى الفنانة المغربية والأستاذة أمينة رشيد".

ومن أشـهر أفلام الفنانـة الراحلة "لـلا حبي" للمخرج محمـد عبدالرحمن التازي عام 1996، و"فيها الملح والسكر" للمخرج حكيم نوري عام 1999 و"القلوب المحترقـة" للمخرج أحمـد المعنوني عام 2007.